

قضية الدين في البعث العربي

ان أول ما أريد ان أنبه اليه هو ان ثقافة الاعضاء والشباب القومي بصورة عامة لا يجوز ان تبقى ثقافة منفصلة^(١)، كأن ينظر الى قضية الامة العربية على أنها تحتوي مشاكل نظرية وعناوين لمشاكل يمكن ان تحل بجواب يعطى من شخص او من صحيفة أو مجلة كتلك الاسئلة التي توجه عادة الى المجلات والاذاعات، فذلك لا يكون ثقافة. . . وهذا هو النوع الرائج في وسطنا، ويكتفي به عامة الناس والذين لا يعتبرون القضية قضية جدية تتعلق بمصيرهم بل تتحول في الواقع بالنسبة اليهم الى كلام وتسلية بالكلام والنقاش لتمضية الوقت والاكتفاء بمفاهيم رائجة سطحية جدا وخاطئة من أساسها، والدوران في نطاق هذه المفاهيم العامة السطحية واحتدام الجدل بين وجهات نظر وآراء ليست هي في الواقع لا وجهات نظر ولا آراء. ان الذي يهمنا نحن بالدرجة الاولى هو تكوين الجيل العربي الجديد الذي تلقى عليه مهمة الانقلاب العربي وايصال القضية القومية الى الظفر والنجاح، يهمنا أن يكون هذا الجيل لنفسه ثقافة حقيقية متميزة تميزا واضحا عن العامة المسيطرة على مجتمعنا. وباختصار: كيف يجب أن نفهم الثقافة؟ هي أولا مشاركة في الجهد وليست انفعالا وتكيفاً، أي، ان الذين عليهم أن يتثقفوا يتوجب عليهم ان يتعبوا وأن يتقاسموا الجهد مع مثقفهم وان يمشوا بأنفسهم خطوات جديدة في طريق المعرفة والتثقف اذ لا يجدي قضيتنا شيئاً ان نجمع شباباً لا يعملون أكثر من حفظ بعض الشعارات والكليشيات والاجوبة العامة الموجزة التي يمكن أن تفهم على أي شكل أي ان لا تفهم مطلقاً. على الشعب العربي ان يفهم ان الثقافة هي نوع من أنواع النضال، النضال مع النفس، النضال مع الفكر لكي يتعب في تحصيل المعرفة ولكي يجرؤ على تبديل الاسس السطحية في التفكير الشائع التي هي في داخله لكونه ابن وسطه، لكي يعيد النظر في كل الامور الاساسية حتى يصل الى النظرة الجديدة،

(١) حديث القي على الاعضاء والانصار في طرابلس.

النظرة الانقلابية التي أوجدها الحزب في المجتمع العربي الجديد، والتي لا يعني وجودها بأن جميع المنضوين تحت لواء الحزب أو المناصرين لاتجاهه قد فهموها وحققوها في أنفسهم وعاشوها بعمق. فكل شيء يمكن ان يستعار وان يقلد الا الفكر: على كل شخص، على كل فرد ان يملكه شخصيا، اي ان يمشي هذا الطريق من اوله بنفسه وبجهده الخاص حتى يصح ان يعتبر هذا الشخص انقلابيا وان تكون نظرتة أصيلة نابعة من نفسه لا مجرد تقليد واستعارة.

من المهم جدا أن نعود دوما الى أنفسنا بالنقد الذاتي حذرا وحيطة لكي نهدم بعد كل خطوة نخطوها ما يعلق بنا من اصطناع وتزييف وتقليد اذ ليس أسهل من أن يستسلم الانسان للتقليد والتزييف لان فيهما الراحة والكسل. فالحركة الصادقة الحية هي التي تبقى في صراع مستمر مع نفسها كما هي في صراع مستمر مع أعدائها ومع الاوضاع والقيم الفاسدة التي عليها ان تحطمها. لذلك رأيت من الواجب ان ابدأ جوابي على الاسئلة بهذا التنبيه لكي تحتاطوا كثيرا لأنفسكم وترفضوا رفضا باتا وجازما أن تكون فكرتكم وان يكون ايمانكم بالحركة شيئا غير نابع من نفس كل منكم وشيئا سهلا يحفظ بالذهن ويلوكة اللسان ولكنه عديم الصلة بالحياة.

١ - السؤال الاول: عن موقف الحزب عندما يصل الى الحكم ويحقق أهدافه او يبدأ في تحقيق الانقلاب العربي، وكيف يكون موقفه من الدين بصورة عامة؟
للإجابة على هذا السؤال لابد من ملاحظة اولى وهي ان لا فرق في نظرة حزبنا بين المرحلة التي تسبق وصوله الى الحكم بالشكل الكامل وبين المرحلة الثانية والاخيرة التي هي مرحلة التحقيق الايجابي، تحقيق الانقلاب العربي الشامل. فعمل الحزب اذن واحد في المرحلتين ومنطقه واحد ونضاله أيضا واحد. كثيرا ما رددنا خلال نضال الحزب هذه الفكرة بأن حزبنا سيعد أو هو مكلف بأن يعد الانقلاب العربي منذ اليوم الاول الذي ظهر فيه باعداده ادوات الانقلاب التي هي نفوس الشباب، اذ لا يمكن التفريق بين الانقلاب وأدواته. فكما تكون الادوات يكون الانقلاب، وقد يكون التعبير غير دقيق، اي ان أعضاء الحزب المناضلين الذين نسميهم أدوات الانقلاب يطلب من الحزب أن يرببهم في تفكيرهم وفي سلوكهم

التربية الانقلابية الصحيحة حتى يستطيعوا أن يحققوا الانقلاب عندما تتوافر جميع الشروط لهم . للانقلاب شروط على نوعين : شروط ذاتية وشروط موضوعية - شروط ذاتية يجب أن تتحقق في نفوس الانقلابيين ، في نفوس أعضاء الحزب وأنصاره ، وشروط موضوعية تتعلق بالظروف الخارجية والظروف الداخلية ونمو المجتمع والثروة وشتى النواحي . فلو أهملنا الشروط الذاتية وتوفرت الشروط الموضوعية فلن يكون ثمة انقلاب لانه لن يكون ثمة من يؤمن بهذا الانقلاب ، ومن يعي أهدافه ومن يتصف بأخلاقه وبالاخلاص له حتى يحققه . لذلك استطيع أن أعود الى المقدمة عن الثقافة واقول بأن من أهم عناصر الثقافة التي يجب ان تطلبوها انتم هو النضال نفسه ، هو العمل والمشاركة في حمل المسؤوليات والاتصال الحي بالواقع ومواجهة مشاكله وصعوباته والاهتداء بالسوعي والارادة الى ايجاد الحلول المناسبة لها بشكل يقوي التيار الانقلابي ويوصل الانقلاب الى أهدافه . هذا عنصر أساسي من عناصر الثقافة الجديدة التي نطلبها للجيل الجديد اذ ان كل ثقافة تنحصر في الذهن والتفكير فقط دون مشاركة فعلية وعملية ، ليست ثقافة ناقصة فحسب ، بل هي ثقافة مختلة ومنحرفة من أساسها لان عنصر العمل مفقود فيها .

المشكلة الدينية هي بلا شك من أبرز المشاكل في المجتمع العربي الحديث ، لذلك لا يعقل أن يتجاهلها حزبا وان يتهرب من ايجاد الحلول لها . لهذه المشكلة تعبيرات مختلفة ، تعبير فكري يتصل بصميم عقيدتنا الانقلابية وتعبير أخلاقي عملي يتناول تصرفاتنا وردودنا على المشاكل الواقعية التي نواجهها . مهمة الحزب هي أن يضع للعرب في هذه المرحلة الخطيرة صورة كاملة لمشاكل حياتهم والحل لهذه المشاكل ، واجبه ان يضع لهم صورة كاملة للحياة الانسانية . فهل الدين شيء ثانوي مصطنع في حياة الانسان والامم؟ هل هو شيء عارض ولوانه دخل حياتهم منذ الوف السنين؟ واذا نظرنا اليه على انه شيء غير أصيل ، غير أساسي ولا يلبي حاجة صادقة وعميقة في النفس فهل يمكن أن ينتهي ويزول مع ما وراءه من تاريخ حافل طويل منذ آلاف السنين؟

ان الحزب لا يرى هذا بل يرى ان الدين تعبير صادق عن انسانية الانسان ، وانه

يمكن ان يتطور ويتبدل في أشكاله ، وان يتقدم او يتأخر ولكنه لا يمكن ان يزول .
اذن فالدين في صميم القضية العربية والمواطن العربي الذي نعمل لتكوينه لم
نرض له ان يتكون تكويننا ناقصا اوزائفا ، وأن نكتم عنه جانبا من الحقيقة او نصف
الحقيقة فنعطيه فكرة تخدمه وقتنا من الزمن ثم لاتعود صالحة ، عندها نصل الى
الشيوعية وفلسفتها ، فنحن منذ بدء حركتنا نظرنا الى الشيوعية كشيء خطير وجدي
وجدير بأن يعتبر ، وبالرغم من كل النواحي الايجابية الخطيرة التي أتت بها فلسفة
ماركس فقد اعتبرناها ناقصة لانها لم تعبر عن كامل الحقيقة بل أخفت بعض
نواحيها ، وقد يكون قصدها من وراء ذلك تقوية العمل وتركيز العزم على مجال
محدود من الاهداف القريبة لكي يكون مردود العمل أكبر ونزوعه أقوى وأفضل ، تاركة
للزمن فيما بعد ان يصلح ما أهملته وان يكملها . .

فالماركسية تقوم على أساس نفي وانكار كل معتقد يتجاوز الطبيعة والمادة
والاشياء المحسوسة كما هو معروف ، وليس هذا في الماركسية نتيجة عجز عن
الفهم ، كلابل له دافع عملي وهو: ما دام الدين قد استخدم خلال التاريخ ، وبصورة
خاصة خلال التاريخ الحديث حيث تفاقمت الفروق الطبقية والاستغلال الطبقي ، ما
دام قد استخدم لابقاء الاستغلال واستمراره ودعمه واستخدم لمنع التحرر البشري
وكان في صف التأخر والعبودية والظلم ، لذلك رأت الماركسية ان تنسفه نسفا .
فالدافع اذن دافع عملي وليس عجزا عن فهم أهمية الدين وحقيقته . ولكننا نحن لانقر
هذا الدافع على ما فيه من واقعية ، اذ انه ينبىء عن ضعف ثقة بالانسان بأنه لا يتحمل
هضم الحقيقة الكاملة . فنحن مع تبيننا للنظرة السلبية الى الدين ، اي رغم معرفتنا
الطريقة الرجعية التي استخدم الدين بها ليكون داعما للظلم والتأخر والعبودية ، نثق
رغم ذلك بأن الانسان يستطيع أن يثور على هذه الكيفية في استخدام الدين ، وعلى
هذا النوع من التدين الكاذب والمشوه وأن يعطي في نفس الوقت للدين الحقيقي
الصادق حقه .

ونحن لا نجهل بأن نظرتنا هذه تتطلب من الجهد والحذر اضعاف ما تتطلبه
النظرة الشيوعية التي تخلصت من المشكلة بأن رفضتها تماما وألقها جانبا . اما نحن

فالمشكلة بالنسبة لنا أعقد بكثير لاننا كما قلنا في مرحلة الانقلاب، الانقلاب العميق الجذور في كل الامور الاساسية التي تركز عليها حياة العرب والتي يؤلف الدين جزءاً منها. فلو اكتفينا مثلاً بالنظرة السطحية وقلنا ان الدين رغم كل انحرافاته وتردياته والاشكال التي يستغل بها ضد مصلحة الشعب وضد التقدم وحرية الانسان، هو بهذه الصورة المشوهة وضمن هذا الاطار الرجعي، شيء صادق وأساسي لا يستغنى عنه وانه متأصل بأعماق الانسان، لذلك فنحن نوافق عليه بهذه الصورة ونتبناه! لومررنا على الدين هذا المرور السريع لأدى الأمر بنا الى أن نلتقي مع الرجعية وان نقبل كل أمراضنا الاجتماعية والفكرية والاخلاقية وان نكون قد بقينا في أرضنا لم نغير في حياة العرب، وهذا تزوير كبير للحقيقة، وقتل بل خنق للانقلاب قبل ان يولد.

فكرتنا ايجابية تنتهي دوما الى تقرير الحقائق الايجابية، ولكن يجب أن لا ننسى بأن بين وضعنا الان وبين هذه الحقائق الايجابية التي يجب أن نصل اليها عندما يتحقق الانقلاب العربي، مسافات شاسعة يجب أن يبقى فيها التوتر شديدا بين وضعنا السلبي المريض الذي نعيشه وبين المرامي الاخيرة لفكرتنا، وان تكون لدينا الشجاعة الكافية واليقظة التامة لكي نتبين كل مفاسد أوضاعنا ونحاربها محاربة لا هوادة فيها، وان نشق من خلال هذه المعركة السلبية التي نحارب فيها المفاهيم البالية المشوهة، طريق القيمة الايجابية التي سنصل اليها آخر الامر. كثيرا ما قيل لنا، خلال السنوات التي مر بها الحزب في نضاله، من جماعات رجعية، متأخرة في عقليتها، استغلالية في سلوكها تمثل المصالح والعقلية والاضعاع التي يتوجب علينا القضاء عليها، كثيرا ما قيل لنا: ما دامت نظرتكم ايجابية وما دمتم تعرفون قيمة الدين فما الفرق بيننا وبينكم؟

الفرق كبير جدا، هو الفرق بين النقيضين. نحن نعتبر ان الرجعية الدينية تؤلف مع الرجعية الاجتماعية معسكرا واحدا يدافع عن مصالح واحدة، وانها أكبر خطر يهدد الدين. ان هذه الرجعية التي تحمل لواء الدين في يومنا هذا وتتاجر به وتستغله وتحارب كل تحرر باسمه وتدخله في كل صغيرة وكبيرة لكي تعيق الانطلاقة الجديدة، هي أكبر خطر على الدين، وهي التي تهدم مجتمعنا وتشوّهه، فلولم نكن

نحن ولولم تكن حركتنا موجودة لتهدد المجتمع العربي بأن يشوهه الالحد، اذ اننا بمقاومتنا الرجعية الدينية بدون اعتدال وبدون مسايرة وبمواقفنا الجريئة المؤمنة منها، ننقد مجتمعنا العربي من تشويه الالحد.

ولكن هذا شيء والسلك والتصرف شيء آخر، اوبالاصح يجب علينا أن نعرف كيف نترجم فكرتنا ترجمة عملية وكيف يجب ان يكون تصرفنا العملي مؤديا الى الغاية المطلوبة: ان جمهور شعبنا ما زال متأخرا وما زال خاضعا لمؤثرات رجال الدين من شتى المذاهب والطوائف. فلو اننا ذهبنا الى جمهور الشعب، وليس لنا غنى عنه اذ بدونه لا نستطيع ان نحقق أي تبديل أساسي في الحياة العربية، لو ذهبنا اليه بأفكار فجة وبأساليب غير محكمة وتصرفنا تصرفات هي أقرب الى ردود الفعل والنزق والمرض النفسي منها الى الايمان بحركة منقذة، فأخذنا نطعن بالدين وتبجح بالكفر وتحدى شعور الشعب في ما يعتبره هو مقدسا وثمانيا، نكون بدون فائدة وبدون أي مقابل أغلقنا أبواب الشعب في وجه الدعوة وأوجدنا ستارا كثيفا بيننا وبينه حتى لا يعود قابلا او مستعدا لان يسمع منا شيئا أو أن يسايرنا في نضالنا ودعوتنا.

فالمناضل البعثي يجب أن تتوافر فيه شروط صعبة جدا وتكاد تكون متناقضة، فهو حرب على كل تدجيل باسم الدين والتستر وراءه لمنع التطور والتحرر والابقاء على الاوضاع الفاسدة والتأخر الاجتماعي، ولكنه في الوقت نفسه يعرف حقيقة الدين وحقيقة النفس الانسانية التي هي ايجابية قائمة على الايمان لا تطبيق الانكار والجحود، وان جمهور الشعب ليس هو العدو بل هو الصديق الذي يجب أن نكسب ثقته. صحيح انه مضلل مخدوع ولكننا نحن لا نستطيع أن نكشف له انخداعه الا اذا فهمناه وتجاوبنا معه وشاركناه في حياته وعواطفه ومفاهيمه، فنحن في كل خطوة نخطوها نحوه نستطيع ان نطمع بخطوة من جانبه يأتي بها اليها، لذلك يكون المناضل البعثي مهتدا دوما بالخطر: فهو ان سلك هذا السلوك مهتد بأن يتزمت وان ترجع اليه عقلية الرجعية التي ثار عليها، وهو ان سلك سلوكاً آخر معاكسا، ان شهر السيف على المعتقدات الخاطئة مهتد بأن يصبح سلبيا وان يخون ما في فكرة البعث من ايجابية فيلتقي بهذا مع السلبية الشيوعية التي رفضناها او ان يلتقي مع أي شكل من

أشكال التحرر الزائف المقتصر على التظاهر والتبجح . إذن على المناضل البعثي ،
عندما يحارب الرجعية ويصمد أمام هجماتها وافتراءاتها وتهيجاتها واثاراتها ، ان يتذكر
دوما انه مؤمن بالقيم الايجابية والقيم الروحية وانه انما يحارب تزييف القيم من قبل
الرجعية ولا يحارب القيم نفسها . وانه عندما يساير جمهور الشعب ويتصرف تصرفا
حكيماً معه دون أن يجرح عواطفه لكي ينقله تدريجيا الى مستوى الوعي اللازم ،
عليه ان يتذكر انه رجل نائر متحرر لا يقبل لنفسه ولا لأمتة مستوى رجعي رخيصا من
الاعتقاد ولا صورة مشوهة للعقيدة الروحية ، وان مسيرته للشعب ليست الا وسيلة
مؤقتة لكي يهيئه لأن يفهم الامور الصعبة . ان ثقة البعثي بالانسان عامة وبالانسان
العربي خاصة يجب أن تغريه دوما بالمزيد من الجرأة في مكافحة المعتقدات
الخاطئة الجامدة ، وان لا يحسب ان الامة العربية لا تتحمل هذه الكمية من الثورة
والتحرر فهي خصبة عميقة ، وهي مختزنة لتجارب مئات السنين من الآلام ، مئات
السنين من التأخر والظلم ، لذلك فهي مهياة كل التهيؤ لان تتفجر وان تبلغ مستوى
روحيا فيه كل الجرأة .

نيسان ١٩٥٦